

صورة الذئب في المتخيل الشعري العربي القديم

د.ناصري علاوة

جامعة تبسة

ملخص:

لا أحد ينكر صورة الذئب التي جبل عليها من قسوة وعدوانية وحيلة... لكن الشعراء العرب القدماء، وفي هذا المقال، وعبر أسلوب فني، جمالي، وصفي وسردي رأوا فيه أيضا طبيعة إنسانية بتناقضاتها جمعت بين الخير والشر، الخبث والدهاء، والثقة والخيانة، إلى درجة، راودت الشعراء فكرة الاطمئنان إليه والاستئناس به.

الكلمات المفتاحية: صورة - الذئب - الخيانة

Summary:

No one ignores the wolf's image as it is dangerous, cruel and mischievous, but, in this article, the old arabic poets presented it differently through an artistic, esthetic, disruptive and narrative style. They also saw a human nature in its contradiction that combined: good and evil, malignancy and cleverness, trusty and treason, to the point where poets came to the idea of reassurance to it and domesticate.

. image - the wolf - the treason

تقديم:

منذ أن تأسس الأدب - كفعل حضاري إنساني - ما انفك الأديب، عموما، والشاعر خصوصا يمد عينيه إلى ما حوله، ويسلك منه المسالك المختلفة، ينسج منه مادة وموضوعا لأدبه، شعره ونثره. وكانت الطبيعة - حية وميتة - والإنسان على صدرها، مصدر إلهام الشعراء الذين رسموا بعواطفهم وأخيلتهم، وأساليبهم مشاهد كثيرة من هذه الطبيعة التي تمارس حضورها العنيف تارة، واللطيف تارة أخرى على كل شاعر يقوى على رسم تجربته الشعرية، فيمدها من روحه سعيا منه إلى إنجاز لوحة شعرية تكون له ذخرا، وعلامة على التفوق. ولنا في الشعر العالمي، والعربي الأمثلة الكثيرة التي أسهم حرص الشعراء الشديد - من خلالها - في نشر القيم والفضائل، وتلك رغبة الشاعر خاصة إذا علمنا "أن الضمير الأخلاقي ظل يرافق الضمير الفني ويصاحبه على الخلق بحيث كان الفن تابعا للفضيلة"¹.

الذئب في المشهد الشعري العربي القديم:

تناول الشعراء "الذئب" في قصائد مستقلة وجاء جزءا من قصائد طويلة وقرئ في أبيات مفردة، وأمثال وحكم، ويتفق الجميع على أنه حيوان مفترس وعدواني.

ويستعمل حقيقة ومجازا، ويقال رجل مذؤوب أي فزعته الذئب، أو وقع في غنمه الذئب. ومن المجاز هو ذئب في ثلة، وهم أذؤب وذئاب، وهم ذؤبان العرب أي صعايلكهم وشطارهم، وقد ذؤب فلان ذآبة أي خبت كالذئب، وأكلهم الذئب أي السنة.²

وجاء في الأمثال: أجوع من الذئب، وأجوع من ذؤالة... فالذئب لا بد له من شيء يلقيه في جوفه، فهو جائع جدا، لذلك كانت العرب يدعون على العدو بالجوع قائلين: رماه الله بداء الذئب أي الجوع.

وجاء بأسماء مختلفة، فهو السيد، والسرحان، والذئبة، واستعمله الشعراء على سبيل التمثيل، فورد مشبها مرة، ومشبها به مرة أخرى باعتبار أن المشبه في الغالب الأعم هو مناط الوصف، ومحط الاهتمام، ومثل هذا التوظيف يحدث لدى المتلقي

استجابة تكون عادة النفور من الذئب واستحسان لصدده. وهو ما أشار إليه طرفة بن العبد (من الطويل)، وقد أحس وطأة ظلم ذوي القربى:

فنى ليس بابن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يوما دما فهو آكله³

ولما كان الشعر مجاله العاطفة والوجدان وتحريكها بكثير من الإثارة والإغراء، فقد وظف الشعراء كل قدراتهم التخيلية للوصول إلى أهدافهم من ذلك أن الشعراء الصعاليك فهموا أسباب ما آلوا إليه من وضع اجتماعي واقتصادي.

رعاة الشاة تحمي الذئب منها فكيف إذا الرعاة في الذئاب؟

فالصعاليك قوم منكرون، متمردون واثرون على تقاليد المجتمع لم يكونوا طرفا في وضعها.

ذئاب الصعاليك:

كان الشنفرى أحد أشهر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، وقد أعلن قطع علاقته بأهله لما لحقه من ظلم، وانضم إلى عالم الحيوان الذي وجد فيه ضالته، وهو تبرير كاف مادام الشنفرى راضيا كل الرضا عن هذه العائلة الجديدة. قال (من الطويل):

وفي الأرض منأى للكرم عن الأذى وفيها، لمن خاف القلى متعزل

ولي دونكم أهلون سيد عملــــس وأرقت زهلول وعرفاء جبال

هم الأهل، لا مستودع السردائع لديهم، ولا الجاني بما حر يخذل⁴

وقد خص الشنفرى الذئب بعشرة أبيات في اللامية التي سماها المستشرق جورج يعقوب "نشيد الصحراء" وفيها كان الشاعر شغوفاً بمظاهر التعاطف عند الطير والحيوان، فصور استدعاء الذئاب بعضها البعض عن طريق الصوت المتعارف عليه، ولما لم تجد شيئا تأكله، وقد عضها الجوع كما عض الشنفرى، اجتمعت كما يجتمع النساء البواكي ... ومن ثمة، غدا الشاعر عنصرا منها ...

وقد أراد الشاعر أن يتضامن مع الذئاب متكئة أمام الجوع، فغدا معادلا موضوعيا يصف من خلاله أصحابه الصعاليك من تأبط شرا، وقيس بن الحداية ... وكلهم جائع صابر، فذئب الشنفرى جائع يشاركه الجوع أصدقاء له يعيشون المأساة ذاتها، مما يجعل القارئ يرى أن الذئب في هذه اللوحة رمز لحياة الصعاليك والشعراء الصعاليك كذئابهم هزالا، والهزل صفة تمتدح هنا على حد قول الشاعر العباس بن مرداس (من الوافر):

ترى الرجل النحيف فتزدرية وفي أثوابه أسد هصور.

فالبئنة قاسية والطعام قليل، وإن وجد ذهب إلى صاحب الحاجة. قال الشنفرى (من الطويل):

وأغدو على القوت الزهيد، كما غدا أزل تماداه التائف أطحل

غدا طاويا، يعارض الريح، حافيا يخوت بأذناب الشعاب، ويعسل

فلما لواه القوت، من حيث أمه دعا، فأجابته نظائر نحل

مهتره، فوه، كأن شدوقها شقوق العصي، كالخوات وبسل.⁵

والشنفرى في "لاميته" شغوف بمظاهر التعاطف عند الطير والحيوان [...] ومع التعاطف يأتي التماهي بين الشاعر وهذه المخلوقات بحيث يحرص على ألا ينفصل عنها، فهو ذئب مع الذئاب⁶ التي لم تكن الطبيعة الصحراوية رحيمة بها، فكانت تبحث عن طعامها في كل مكان، - كالصعاليك تماما - ولا تجدها اقتناعا من الشاعر بأن حياته وحياة تلك الذئاب العاوية، إنما هو موضوع صراع لأجل البقاء.

ولم يكن الشنفرى صاحب ذئاب يسمعها ولا يهاجمها، وإنما كان تأبط شرا صاحب الآخر في ملاقات تلك الوحوش التي كانت ضحية للطبيعة، وكان كالشنفرى أحق الناس حديثا عن الذئاب. قال (من الطويل):

وواد، كجوف العير، قطعته به الذئب يعوي كالحليع المعيل
تغذى بزيارة، تعج من القوا ومن يك يبغي طريقة الليل يرمل
فقلت له لما عوى: إن ثابتا قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما أنال شيئا أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل
طرحته له نعلا من السبت ظله خلاف ندى من آخر الليل مخضل
فولى بها جذلان ينفض رأسه كصاحب غنم ظافر بالتنول⁷

وذئب تأبط شرا كذئب شعراء الذئاب معادل موضوعي لذات الشاعر التي تقوم بنقل الأحاسيس إلى العمل الفني وهي: "إن الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في العمل الفني تكمن في إيجاد معادل موضوعي، أو بمعنى آخر، مجموعة من الأشياء أو وضعية أو سلسلة من أحداث ستكون بمثابة صيغة أو قاعدة لتلك العاطفة المحددة حتى أنه إذا ما أعطيت تلك العناصر الخارجية التي يجب أن تؤدي إلى تجربة حسية، ثم استحضار تلك العاطفة مباشرة".⁸

ذئب أسماء بن خارجة:

وفي قصيدة من ستة وثلاثين بيتا، وظف الشاعر نصفها ليصف ذئبا جائعا وسط بيئة مخيفة وموحشة استطاع الشاعر تجاوزها.

لقد كشف الشاعر عن صعوبة العيش في قالب سردي، تأملي، حين راح يعطي صفات إنسانية لذئبه، يعاتبه ثم يعبر عن موقفه حين وصفه بالمشاغب (والشغب بلغة الشرطة هو من يهيج الأشرار إلى درجة يصعب التحكم فيهم). وحينها نجد الشاعر يبحث عن البديل، ويسعى إلى الهدوء والطمأنينة التي فيها خلاص للذئب والشاعر معا.

ولما كان الكرم طبعاً في الشاعر، فقد عقر ناقته وتركها للذئب وعياله وهي نهاية سارة تكشف تعاطف الشاعر مع الحيوان. يقول أسماء بن خارجة (من الكامل):

ولقد ألم بنا لنقريه بادي الشقاء محارف الكسب
يدعو الغنى إن نال علقته من مطعم غبا إلى غب
فطوى ثميلته فألحقها بالصلب بعد لدونة الصلب
وأردت حقاً أن أضيّفه إذ رام سلمى واتقى حربي
فوقفت معتماً أزاولها بمهند ذي رونق عضب
فعرضته في ساق أسمنها فاختار بين الحاذ والكعب
فتركتها لعياله جزراً عمداً، وعلق رحلها صحي⁹

إن اختيار الشاعر لهذه النهايات الجميلة، إنما يكشف عن موقف إنساني إزاء الحيوان الذي اقم أن لا عقل له، فقد قضى حياته هائماً لا يجد ما يأكل. كان هذا الذئب -والذئاب قبله- مسحوراً بالطعام وبالشراب... وكان مشهد الدم المنقول أمامه، وفي مناسبات مشابهة، تثير أعصابه، وتقوى فيه شهية الأكل، فينتصر حيناً من الزمن لتبقى التزعة العدوانية فيه قائمة أبداً الدهر كحال الصعاليك جميعهم.

الخصائص الفنية لشعر الذئب في العصر الجاهلي:

على الرغم من أن موضوع الذئب لم يرد في قصائد الصعاليك بنية مستقلة وهو أمر طبيعي، لأن القصيدة الجاهلية لم تعرف الوحدة العضوية والموضوعية، وقد جاء تناول الذئب في قصيدي الشنفرى (-500م)، وتأبط شرا في سبعة عشر (17) بيتا... وأكد النقاد أن الذئب في هذه القصائد هو الشاعر ذاته، ما دامت الدراسات النقدية تؤكد أن القصيدة الجيدة عمل يخفي فيه الشاعر نفسه، ولا يكشفها [..] والشاعر الحق عند T.S. élliot هو من يخفي عواطفه الخاصة وراء ستار من الموضوعية.

وجاء أسلوب البنيتين يناهض الأسلوب المنقح في شعر زهير (-555م) والشعراء الرسميين، وكذلك فإن شعر الصعاليك ينازع الشعر المنقح في القيم التي ينادي بها، من ذلك أن الصبر على الجوع أحد مقاصد الشنفري وهو يصف الذئاب التي تنادت واجتمعت حين لم تجد ما تأكل تفرقت.

شکا وشکت، ثم ارعوی بعد و ارعوت وللصبر إن لم ينفع الشکو، أجمل

وكان الحوار ظاهرة عامة عند هؤلاء الشعراء ليظهر التشابه بينهم وبين ذئابهم سواء في التمرد والتشرد أو الهزال والفقر المؤدي إلى شدة الجوع، كما فعل المرقش الأكبر (-550م) حين وصف الذئب في أبيات قليلة تشبه نهايتها أبيات تأبط شرا.

ذئاب شعراء ما بعد الجاهلية:

يستمر حضور "الذئب" نقطة تمرکز وإمداد عند شعراء ما بعد الجاهلية، وبقي الاختلاف بينهم في كيفية استقباله، فمنهم من أكرمه ومنهم من أهانه، فعلى غرة يلتقي الذئب بالشاعر، وكلاهما كثير الحركة، ويعمل طول الشتاء، فتبنى علاقات على حسن المودة، وتنتهي علاقات بالنفار... ويكون كل ذلك إيذاناً بتحول العالم الذي سوف يؤكد ثنائية الغدر والوفاء، والموت والحياة، والخير والشر، والعدل والظلم، والجمال والقبح.

وعليه فقصاص الذئب هي قراءة للعالم وبنياته المختلفة وبالمصطلح السياسي والاقتصادي فإن المصالح أولى من الصداقات، ولأن العنف كان -ولا يزال- إحدى خصوصيات الإنسان والشاعر الذي يريد أن يحقق سعادته على حساب ذئاب مستوحشة. وقد علم هذا وذاك أن "الهناذة هي تنام متواصل للرغبة، من موضوع إلى آخر، والحصول على الموضوع الأول يظل مجرد طريق للحصول على الموضوع الثاني، وهذا هو السبب الذي يجعل موضوع رغبة المرء لا يكون موضوعاً للاستمتاع مرة واحدة فحسب، ولبرهة من الزمن، وإنما يتمثل في تأكيد المرء إلى الأبد عن طريق رغباته المستقبلية".¹⁰

فالذئب والشاعر يحركهما الجوع، والذئب تستفزه رائحة الدم، والإنسان ينأى بنفسه عن مواطن الدم... "ولكن الشعراء تقاسموا معطيات مشهد الذئاب التي تتحلق حثث القتلة، فترسى المأساة على قدر ما يفتخر المتحاربون بذلك، يقول دريد بن الصمة:

ردسناهم بالخیل حتی تملأت عوافی الضباع والذئاب السواغب.¹¹

وكان كعب بن زهير أحد الشعراء المخضرمين، الذي خصص في لاميته سبعة عشر بيتا للذئب، وفيها وقف حائرا أمام محاولة اقتراب الذئب منه وملاصقته... فقد وصف الذئب وهزله، وقد علم أن لا شيء يقدمه لهذا القادم ليلا وقد هده الجوع... يقول كعب بعد أن حدد الإطارات المكانية للحدث، وهي الصحراء التي لا يستطيع أحد إعمارها:

و صرماء مذكار كان دويها
بعيد جنان الليل مما يخيل

حديث أناسي فلما سمعته
إذا ليس فيه ما أئين فاعاقل

قطعت يماشيني بها متضائل من الطلس أحيانا يخب ويعسل
 يحب دنو الإنس منه و ما به إلى أحد يوما من الإنس منزل
 تقرب حتى قلت لم يدن هكذا من الإنس إلا جاهل أو مضلل
 مدى النبل تغشاني إذا ما زجرته قشعريرة من وجهه وهو مقبل
 إذا ما عوى مستقبل الريح جاوبت مسامعه فاه على الزاد معول
 كسوب إلى أن شب من كسب واحد محالفه الإقتار لا يتمول
 كأن دخان الرمث خالط لونه يغلب به من باطن و يجلب¹²

لقد استطاع كعب بن زهير أن يقدم لنا ما رآه وما أحسه في مشهد سردي عمد فيه إلى الحوار والوصف الذي كان للذئب نصيبه، وقد ظهر متضائلا، هزيلا، أغبر اللون، وقد اقترب من الشاعر طلبا للأكل والأنس المفقودين عند الطرفين...

كان كعب بمشاكله العائلية التي تثبت قسوته وعنفه مع زوجته، قد فضل المغامرة في الصحراء، ناسيا فقره وسوء خلقه، مستقبلا ذئبا وغرابا وهما يبحثان عن قرى عنده، فلا يجدانه. "وما دام كعب غير قادر على تغيير واقعه الأسري الممزق، فإن من حقه أن يعتمد إلى ممارسة نط من أحلام اليقظة التي يعوض فيها عن حرمانه بإعادة تشكيل ملامح ناقته لتحتل في عالمه الصحراوي ما كان ينبغي أن تحتله المرأة المثال في عالمه الإنساني الذي غادره إلى غير رجعة".¹³

ذئب الفرزدق:

وقد كان أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفرزدق (توفي 110هـ/732م) أحد أشهر شعراء العصر الأموي، قد ارتبط بالنوار زوجته - من بين أخريات - في قصة عجيبة، وكان معها شرسا، خشنا، وظلت معه صالحة نقية إلى أن طلقها عند الحسن البصري، وقد ندم بعد ذلك ندما شديدا. إن اللافت للنظر في شعر الفرزدق أنه تحدث عن الذئب أربع مرات، وفي مناسبات مختلفة كان لقاءه الأول مع الذئب، وهو صبي يرعى غنم أمه، قد وقع ضحية غفلة للذئب، وهو أول شعره على ما جاء في الديوان. قال (من الطويل):

ولائمي يوما، على ما آتت به صروف الليالي والخطوب القوارع
 فقلت لها: إليك، وأقصري فأوم الفتى سيف بوصليه قاطع
 تلوم علي أن صبح الذئب ضأنها فألوي بجبش، وهو في الرعي رافع
 وقد مر حول، بعد حول، وأشهر عليه ببؤس وهو ظمآن جائع
 فلما رأى الإقدام حزما، وأنه أخو الموت من سدت عليه المطالع
 أغار على خوف، وصادف غرة فلاقى التي كانت عليه المطامع
 وما كنت مضياعا، ولكن همتي سوى الرعي، مفطوما، وإذا أنا يافع
 أبيت أسوم النفس كل عظيمة إذا وطؤت بالمكثرين المضاجع¹⁴

لقد كشفت هذه المقطوعة عن طبيعة الذئب التي لازمتها، فهو حيوان جائع مفترس، غدار يتسلل إلى قطع الماشية ليملأ جوفه، ثم ينصرف... وبعدها تصرف الأم كل لومها إلى ابنها، وقد غفل عما يريده الذئب الذي غنم غنما، ثم راح يبرر موقفه مما وقع، وقد أبت نفسه أن يكون راعيا، وغيره يسمو في المراتب والعلل...

وفي مشهد ثانٍ ظهر فيه الفرزدق مداحاً للوليد بن عبد الملك، ويرجوه للفقراء والمحتاجين، وقد أجدبت قهامه والحجاز حتى غدت الذئاب مشهداً مخيفاً، وهي تقترب من الناس وقد هدها الجوع. يقول الفرزدق (من البسيط):

كم من مناد والشريفان دونه إلى الله تشكى والوليد مفارقة
ينادي أمير المؤمنين ودونه ملاً تتمطى بالمهاري ظهايره
بعيد يرامي الذئب دون عياله ولوماتٌ لم يشبع عن العظم طائره
رأوني فنادوني أسوق مطيتي بأصوات هلاك سقاب حرائره
فقالوا: أغثنا إن بلغت بدعوة لنا عند خير الناس إنك زائره
فقلت لهم أن يبلغ الله ناقتي وأيامي أنبي بالذي أنا خابره
بحيث رأيت الذئب كل عشية يروح على مهزولكـم
ليحتر منكم إن رأى بارزا له من الجيف الاثني عليكم حظائره¹⁵

تكشف القصيدة عن قسوة الطبيعة التي تمتد إلى الحيوان، فيهلك الجميع لولا رحمة يوزعها الله على بعض عباده، فيقسمها بين رعيته، ويكون الفرزدق بذلك أحد الغامين وهو شاعر بني تميم يسعى إلى إنقاذ الناس، كما أنقذ جده صعصعة حياة بنات من الواد في العصر الجاهلي، وهو بهذا العمل، حق له الفخر وقد "ورث الجحد من طرفيه: من قبل أبيه ومن قبل أمه، فجده صعصعة محيي المؤودات، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقص عليه ما فعل فمدحه، وأبوه غالب المشهور بكرمه نحر في يوم واحد مائة ناقة [...] وأمه ليست أخت العلاء بن قرظة الشاعر..."¹⁶

وفي قصيدة ثالثة موضوعها الذئب الذي أكرمه الشاعر، وإن لم يكن صاحبه، وهو بذلك يكشف عن خلق كريم ورثه عن أبيه وجده... فالإحسان طبع عند تميم، وها هو يتجاوز الإنسان إلى ذئب جائع هزيل، فيدعوه إلى عشائه والناس شركاء في الطعام- لكن الشاعر يحذر الذئب حين بدت منه سمات الغدر، فينهره ويزجره... يقول الفرزدق (من الطويل):

وأطلس عسال -وما كان صاحباً- دعوت بناري، موهناً، فأثـانـي
فلما دنا، قلت: ادن، دونك، إنني وإياك في زادي لمشتـركـان
فبت أسوي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة و دخان
فقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان
فإن واثقتني لا تخوننني نكن مثل من يا ذئب، يصطحبـان
وأنت امرؤ، يا ذئب، والغدر كنتما أحياناً كانا أرضعا بلبـان
ولو غيرنا نهت تلتمس القرى أذاك بسهم أو شـبـارة سنان
وكل رفيقي كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخـوان¹⁷

ويظهر الفرزدق في هذا القسم الأول من القصيدة، واقعيًا، حكيمًا وإنسانيًا، لكنه حذر خاصة أن الوقت هو الهزيع الأول من الليل، فالإحساس بالخوف ظاهر من جهة، والإطمئنان باد، "فبت أسوي الزاد بيني وبينه". وفي قراءة للدكتور ياسين عايش خليل لهذه القصيدة، يعقد ربطاً بين القسم الأول والثاني الذي خصه الفرزدق للنوار زوجته، والذي بدايته:

وكل رفيقي كل رحل -وإن هما- تعاطى القنا قوماهما أخـوان

يؤكد البيت واقعية الفرزدق من خلال تنقله طويلاً وعرضاً في الفياقي التي تحوجه إلى رفيق... لقد كانت الناقة جزءاً من تلك الرحلات المتعبة، يحتفي بها، كما يحتفي بالنوار زوجته وقد آذاها وغدر بها، لكنه متضايق من ذهابها إلى ابن الزبير تطلب مساعدته، ومع ذلك فكل رفيقي رحل أخوان...

إن هذا القسم من القصيدة هو الصورة الحقيقية للعلاقة التي تربط الشاعر بزوجته، ففي المرأة -عموماً- غدر ووفاء، تباعد وتدان، قسوة ورقة... وفي الرجل هدوء وغضب ورحمة وعذاب... "والحق أن تلك الأبيات تشكل مدخلا متناغماً لحديثه عن زوجته وقبيلته. ولما كان الشاعر، أي شاعر، فنانياً في المقام الأول، فإنه يشكل من اللغة رؤاه وصوره، فهذا الذئب الأطلس العسال لم يكن صاحباً، ومع ذلك فإن الشاعر احتمل رفقته فأشركه في زاده..."¹⁸

يقول الفرزدق في حديثه عن النوار متمنياً عودتها إلى بيتها، (من الطويل):

فهل يرجعن الله نفساً تشعبت على أثر الغادين كل مكان

فأصبحت لا أدري أتبع ظاعناً أم الشوق مني للمقيم دعاني

وما منهما إلا تولى بشقة من القلب فالعينان تبتدران¹⁹

كان هذا المشهد شبيهاً بما فعله كعب بن زهير قبله في حديثه عن الذئب والغراب، وقد استقبلهما يغيان القرى فلا يجدان عنده شيئاً.

إذا حضرائي قلت لو تعلمانه ألم تعلمنا أي من الزاد مرمل

غراب وذئب ينظران متى أرى مناخ مبيت أو مقيلاً فأنزل.²⁰

وفي قصيدته الرابعة، يحدد مكان وزمان حلول الذئب عليه، وهو أغبر اللون كعادة أغلب الذئاب وقد أظهر الشاعر هنا جانبه اللين والإنساني حين قاسمه زاده في غفلة من أصحاب الفرزدق النائمين، وقد تمنى لو ألبسه حتى يقيه البرد. قال الشاعر (من الطويل):

وليلة بتنا بالغريين ضافنا على الزاد، ممشوق الذراعين، أطلس

تلمسنا حتى أتانا، ولم يزل لدن فطمته أمه يتلمس

ولو أنه إذ جاءنا، كان دانيلاً لألبسته، لو أنسه كان يلبس

ولكن تنحى جنبه بعدما دننا بغية زادي والركائب نعس

وكان ابن ليلى، إذا قرى الذئب زاده على طارق الظلماء لا يتغبس²¹

والفرزدق في قصائده التي كان فيها الذئب أحد نزلاته لم يجرمه الليلة للحما.

وقد غنم الطرفان، وأصبح ذكر الفرزدق على كثير من شفاء الشعراء يقلدونه في هذا التعاطف مع الذئب.

والقصيدة من جانبها الفني تشبه تماماً تتبع البرناسيين للبهائم السارحة في البراري والأدغال، يوصدون حركاتهم وألوانها ونفورها رصد إلفه وروعة ودهشة، وخوف... ثم يسكبون كل ذلك الرصد في قصائد تصويرية حسية اللحظ تنسحب على مدى ساحة بانورمية شاملة وكل القصد منها الرسم بالكلمة..."²²

ذئاب شعراء العصر العباسي: (البحثري نموذجاً)

بدأ العصر العباسي بإبعاد الأمويين من السلطة، وكان السلاح الأجنبي من الوسائل المساعدة على تمكن الأعاجم من السلطة في أغلب مراحل الحكم العباسي، وكان الشعراء شهوداً على ما يجري من عنف طال الخلفاء العباسيين، وكان كل حديث عن مظاهر تلك القوة يأتي تصريحاً وتلميحاً.. وما الذئب إلا رمز للعنف الذي تمثله الدولة عموماً.

ليعلم من هاب السرى خشية الردى بأن قضاء الله ليس له رد
فإن عشت محموداً فمثلي بغى الغنى ليكسب مالا أو ييئس له حمد
ويبقى البحري أحد الشعراء المنتصرين لفكرة الجمال والقوة -إنسانا وشاعرا-، فقد كان مداحا للفتح ابن خاقان أحد
وزراء المتوكل، وقد دخل في مبارزة للأسد:

فلم أرض ضرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهياة به النكس كذبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطعما وأقدم لما لم يجد عنك مهريا
فلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثني ولا يدك ارتدت ولا حده نبا²⁶

إن الوقوف عند تلك النهايات المساوية للأسد والذئب عند البحري هي نهاية لعلاقة الإنسان بالحيوان في مجتمعات كان
أصحابها أكثر تمدنا وحضارة، "وليست قصيدة البحري المشهورة بالذئب إلا إعلانا لهذا التغير في روح العربي تجاه حيوان
الصحراء..."²⁷

لقد استطاع البحري من خلال قصيدتيه في وصف مصرع الأسد والذئب أن يجمع فيهما كثيرا من جوانب الوصف
والقص والحوار مع نزوع إلى التأمل لمعرفة حقيقة هذا الوجود الذي يعد الإنسان فيه نقطة ارتكاز، وهو علامة انتصار
على الطبيعة وامتداح للقوة.

ذئب ابن خفاجة الأندلسي (450هـ-533هـ):

استطاع ابن خفاجة أن يملأ حياته الطويلة بالشعر الذي كان وسيلة للمطايبة والمداعبة والشكوى والمعاتبة، وكان ينظم في
وجوب الاعتبار وبكاء أيام الشباب، وقد عاش ثلاثا وثمانين سنة.

وكان جديرا بابن خفاجة أن يسمى بشاعر الليل، فقد ذكره في أكثر من مائتين وخمسين بيتا وأجاد في أكثرها "فكل ما
في الليل من سرى ونجوم وأقمار وذكريات.. كان محل اهتمام ابن خفاجة، وكان الذئب أحد موضوعاته، إذ تناوله نثرا
كما تناوله شعرا... يقول (من الكامل):

ومفازة لا نجم في ظلماتها يسري ولا فلك بها دوار
قد لفني فيها الظلام وطاف لي ذئب يلم مع الدجى زوار
طراق ساحات الديار مغاور ختال أبناء السرى غدار
يسري وقد نصح الندى وجه الصبا في فروة قد مسها اقشعرار
فعمشوت في ظلماء لم تقدح بها إلا لمقلته وبأسي نزار
ورفلت في خلع علي من الدجى عقدت لها من أنجم أزار²⁸

كان ابن خفاجة في كثير من شعره يقلد المشاركة، وكان مع ذئبه يشبه ذئب الفرزدق الذي كان يطوف حول البيت ليغنم
وينصرف، وقد أوتي ملكة الوصف والتصوير بعيدا عن السطحية، قريبا إلى الرمزية فابن خفاجة حين يصف الذئب "فهو
يتزع فيه مترعا نفسيا صادقا، تشيع فيه روح الانهزام أمام الحياة بعاديها، وغاراتها الملحة المتتابعة التي تشنها على أبنائها
أفرادا ودولا، سوقة وملوكا، فهو يتخذ الذئب رمزا يدير حوله حوارا نفسيا عميقا يتصل بقضية الموت والحياة أو الفناء
والخلود".²⁹

كان ابن خفاجة - كغيره من الناس - يرى المشيب والشيخوخة عدوين لدودين لا يمكن قهرهما... لذا كان الذئب رمزا للزمان الذي يغلب الإنسان ويقهره.
ولابن خفاجة مقطوعات أخرى في وصف الذئب يذكرنا فيها بالفرزدق والصعاليك الذين هد الجوع ذئابهم، يقول (من الطويل):

وأطلس زوار مع الليل أغبش سرى خلف أستار الدجى يتنكر
تثاءب من مس الطوى فهو يشتكي فيهوى وقد لفته نكباء صرصر
و دون أمانيه شرارة لـذم يقلب فيها مثلها حين ينزر
فمن جوعة تغريه فهو مدن ومن ردعة تشبيه عين فيقصّر.³⁰

لقد وقف ابن خفاجة عند كثير من عناصر الطبيعة يستمد منها فنه، وقد تراوح فيه بين الجيد والرديء خاصة أن أكثر المعاني ورودا في الديوان مشرقية.

عالم الحيوان عند "لامية العجم" (1061م-1121م):

حظيت لامية العرب للشغف باهتمام النقاد وعلماء اللغة، والمستشرقين لما فيها من قيم تعبر بصدق عن حالة الصعاليك، وهم فئة من المهمشين، الذين فضلوا عالم الحيوان على عالم الإنسان مصداقا لقول الشاعر الصعلوك الأحيمر السعدي (من الطويل):

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر³¹

وقد أشاد بها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أوصى بها خيرا... قال: "علموا أولادكم لامية العرب، فإنها تفتح الأشداق وتعلم مكارم الأخلاق".³²

وللطغرائي، صاحب لامية العجم وهو من شعراء البلاط السلجوقي، وخطاط ديوانه، قصيدة اتخذت شكل المثل الخرافي، فيه نصائح ومواعظ للأفراد والجماعات، تذكرنا بقصص كليلة ودمنة لابن المقفع، وقد اختار لموضوعه ابطلا خرافيين كالأسد رمز السلطة العليا، والثعلب والذئب مساعدين له... وهما عموما رمز للبطانة الفاسدة.
وجاءت القصيدة كاملة (من الطويل):

لقد جاء في أمثالهم أن ثعلبا وذئبا أصابا عند ليث تقدما
أضر به جوع شديد، فشفه وأبقى له جلدا رقيقا و أعظما
فهاز لديه الذئب يوما بـخلوة فقال: "كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكله، وأطعمه، فما هو شكلنا ولست أرى في أكله لك مأثما".
فلما أحس الثعلبان بكيده تطبب عند الليث واحتال مقدما
وقال: "أرى بالملك داء مماطلا تقدم منه جسمه وتحطما
وفي كبد الذئب الشفاء لدائه فإن نال منها ينجد منه مسلما"
فصادف منه ذا قبولا، فعنده أحال على الذئب الخبيث فصمما
فافلت مسلوخ الإهاب مرملا فلما رآه الثعلبان تبسمما
وصاح به: "يا لابس الثوب قانئا متى تخل بالسلطان فاسكت لتسلما"³³

وتعد القصيدة على قصرها نموذجاً للشعر القصصي المهادف إلى ترسيخ سياسة حكم قائمة على الفضيلة والشفافية، بعيداً عن سياسة المصالح ولي أذرع المساعدين بالكيد والخيانة، ضرباً لسياسة السلطان الأكبر. والقصيدة كشف وتوضيح للصراع العادي القائم بين الشر والخير، والرذيلة والفضيلة والمصلحة الآنية لأشخاص افتراضيين وحقيقيين لا تهمهم المصالح العليا للوطن.

لقد شغلت فكرة الخير والشر جانباً واسعاً من فكر الفلاسفة والسياسيين والأدباء والشعراء وكان الطغرائي أحد هؤلاء الذين فهموا كيفية تسيير دواليب الحكم، مقتنعاً بأن من حفر حفرة لأخيه سقط فيها، فالذئب -هنا- دفع ثمن غروره وخبثه في وقت كثر فيه الفساد بين جدران القصور وخارجها، إذ لا قيمة للأبعاد الخلقية والإنسانية عند حاشية السلطان، وبمقدار ما تتكاثر الأبعاد الإنسانية في الأمثال الخرافية يرتفع العمل الأدبي في مراتب القيم التعليمية، ولئن خلا من الدلالات الأخلاقية أحياناً، فإنه ليس يخلو من القيمة الفنية بحد ذاتها متى أحيدت صياغته وروعت فيه تقنيات القص الشيق الممتع.³⁴

وقد قدم لنا تاريخ العرب السياسي والأدبي أن كثيراً من الكتاب والشعراء ماتوا على عتبات قصور الأمراء، من ذلك أن الطغرائي قتل عام 518هـ وهو القائل (من البسيط):

ما كنت أؤثر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمي أناسٌ كان شوطهم وراء خطوي أن أمشي على مهل.³⁵

و خلاصة القول، فإن قصائد الذئب التي وصلتنا من العصور القديمة، تعكس -مما لا شك فيه- اضطراباً و قلقاً في حياة شعراء الذئب، وقد تراوحت بين خفض و رفع، و أنس و وحشة، و سرور و حزن، و استقرار و هجر... لما كانت ملاقة الذئب موضوعاً أراده الشعراء لقصائدهم، فقد جاء تناولهم مختلفاً في كثير من أجزاء القصيدة، مع تشابه في بعض النهايات السعيدة التي ضمن من خلالها الشاعر و الذئب حياته.

و نلمس في كثير من تلك القصائد حضور السلطة التي هي رمز للعنف الذي كان الحوار يجسده من حين لآخر، فالدم المسيل من جسد الذئب إشارة واضحة إلى ما يجري بين الراعي و الرعية التي تحس دائماً بوطأة الجوع الذي لا يقبله أحد مهما يكن.

الهوامش:

1. ايليا الحاوي: الرمزية و السريالية في الشعر العربي و الغربي، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص9.
2. الزمخشري (الامام الكبير جار الله أبي القاسم محمد بن عمر): أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، 1979، ص79.
3. حسين جمعة: مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، دار مؤسسة رسلان، دمشق، 2011، ص304.
4. محي الدين صبحي: شعر الحقيقة (دراسة في نتاج معين بسيسو)، دار الطليعة، ب يروت، ط1، 1982، صص19_42. وينظر: ايليا الحاوي: في النقد والأدب (ج1)، مقدمات جمالية عامة وقصائد محللة من العصر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط5، 1976، صص355-366.
5. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
6. محي الدين صبحي: ص34.
7. هاني نعمة حمزة: شعر المهملين في عصر ما قبل الاسلام (دراسة على وفق الأنساق الثقافية)، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013، ص123.
8. كريس بولديك: النقد و النظرية الأدبية منذ 1890، ترجمة خميسي بوغراة، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة منتوري قسنطينة، 2001، ص87.
9. انظر موسى سامح رابعة: الشعر الجاهلي (مقاربات نصية)، دار الكندي، إربد، الأردن، 2003، صص157-167.

10. نيكولاس وايت: السعادة (موجز تاريخي)، ترجمة سعيد توفيق، (عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب)، الكويت، ع 40، أكتوبر 2013، ص 62.
11. حسين جمعة: ص 310.
12. عبد الرزاق خليفة محمود: المرئي و اللامرئي في الشعر العربي القديم، دار الينابيع، دمشق، ط 1، 2010، ص 28.
13. المرجع نفسه: ص 33.
14. فؤاد افرام البستاني: الفرزدق، (أهاجي و مفاحر)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1941، ص 30.
15. ممدوح حقي: الفرزدق، دار المعارف، ط 5، ص 65.
16. المرجع نفسه: ص 20.
17. المرجع نفسه: صص 78-79.
18. ياسين عايش خليل: دراسات في الأدب العباسي، دار الفكر، دمشق، ط 1430هـ-2010م، ص 260.
19. المرجع نفسه: ص 259.
20. عبد الرزاق خليفة محمود: ص 29.
21. المرجع نفسه: ص 33.
22. خليل شرف الدين: الفرزدق، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1982، ص 112.
23. أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، ص 254.
24. البحري (أبو عبادة الوليد بن عبيد): الديوان، شرحه يوسف الشيخ محمد، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2000، صص 165-166.
25. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط 2، ص 288.
26. ديوان البحري: ص 83.
27. صلاح عبد الصبور: قراءة جديدة لشعرنا القديم، منشورات إقرأ، بيروت، 1402هـ-1982م، ص 79.
28. عبد الرحمن جبير: ابن خفاجة الأندلسي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1401هـ-1981م، ص 120.
29. جلال حجازي: شعر الطبيعة بين الأندلسيين والمشاركة، ص 118.
30. الديوان: ص 120.
31. حسن جعفر نور الدين: موسوعة الشعراء الصعاليك، (ج 1)، (الصعلكة والشعر الصعلوكي في الميزان)، رشاد برس للطباعة، بيروت، 1428هـ-2007م، ص 145.
32. أحمد محمد عبيد: دراسات في الشعر العربي القديم، مؤسسة الانتشار العربي، 2001، ص 86.
33. حنا الفاخوري و آخرون: المشوق في المطالعة والأدب، ج 1، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط 2، 1968، صص 222-223.
34. ميشال عاصي: الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط 3، 1980، صص 174-175.
35. صلاح عيد: معادلة الفكر والنغم، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، مصر، دط، دت .